التصميم والياس ومجابهة الموت مع معانقة الجمال والروعة ــ أخلط هذه كلها معا ، تتكامل صورة وليد / كأنه وهج حديد مصهور في بوتقة ذكاء ونفاذ بصيرة واتزان/ فسحة العريض يوحي بالعناد والقوة والاغراء / طويلا ، عملاقا ، وعيناه لاتملآن وجهة فحسب ، بل الفرقة كلها ، الدنيا كلها / كل امرأة اتصل بها أصيبت بالجنون ، أو الهستيريا / رجلا عبر الماء ولم يغرق ، عبر النار ولم يحترق ....

إن دراسة صفات « وليد سعود » ترفعه إلى مقام الالوهية وترمز به الى مستوى الكلية ، كلية المعرفة ، وكلية الموهبة والقدرة الحسية والجمال الجسدي ، كلية الشجاعة والغموض والكرم ... ومهما تفرعت الصفات وتنوعت فان هذاالبطل لا يفارق مستوى الكلية ، أي لا يفارق مستوى التجريد الفكري المستحيل التحقيق في الواقع ، ومع استحالة التحقق الواقعي تصبح نهاية البطل لغزا ، فالالهي لا يموت ، والمطلق لا يعرف الفناء . غامض في بدايته ونهايته ، لهذا ينتقل اختفاؤه من الشرح إلى التأويل : البعض يقول انه مات عشقا ، والبعض الآخر يعتقد أنه ذهب إلى المناطق المحتلة ، ويميل طرف ثالث إلى القول بانه قتل على ايدي أعداء الشعب الفلسطيني ، ورابع يظن أنه انتحر ... لا نهائية التأويل توازي لا نهائية البطل . وفي النهاية ينجلي الوهم ،فـ « وليد مسعود » لم يغادر الذاكرة التي خلقته : « حتى التخرصات والأوهام حول رجل ما لها أهميتها : وإلا فلماذا اختلفت ، ومن أين جاءت ؟ هل الوقائع دائما مادية ومحسوسة ومعلقة ؟ ص : ٢٧٨ » . فالبطل هو الذاكرة التي تحاول أن تقنع ذاتها بأن مخلوقاتها الاثيرية مادية الحضور : « أعظم السحرة هوذاك الذي يكون مستعدا لأن يرقي نفسه بالسحر إلى حد يعتبر عنده مخلوقات خياله أطيافا لها إرادتها الذاتية . ص : ٢٧٢ » . وإذا كان الواقع يبدد الوهم فان الطبقة العاجزة التي خلقت « وليد مسعود » سحرا أعجز من أن تتعرف على حدود وهمها ، فهي على ما يبدو تمارس السحر وترقى إلى مستوى « أعظم السحرة » حين تجعل لـ « وليد » ولدا فدائيا اسمه « مروان » . وهنا لا يظهر فقط السحر المقلوب لهذه الطبقة ، بل يظهر ايضا التراجع الفني عند جبرا ابراهيم جبرا . فالمقال الروائي في « البحث عن وليد سعود » ينهض كله على لعبة الخيال واحتيال الذاكرة ، أي انه يشكل فضاء مغلقا من العلاقات الفنية التي يحكمها الاتساق . والاتساق هو فضاء المتخيل ، لذلك فانّ خلق شخصية « مروان » كسر هذا الاتساق الفني ونقل التجريد إلى التحديد ، والرمزي إلى الواقعي ، والسماوي إلى الارضي ، والمطلق إلى المتناهي . وإذا رجعنا إلى رواية جبرا فاننا نجد أن الفصل المعلق بـ « مروان » : « مروان وليد يقتحم أم العين مع رفاقه » هو أضعف فصول الرواية ، ويعود ضعف هذا الفصل إلى خروجه عن المنطق العام للرواية ، عن منطق الحكم وعلاقة الخيال بالمتخيل . يخرج هذا الفصل من فضاء الرواية الحالم ويدخل الى العالم الأرضي فيتنزل كفكرة ويتنزل معه الأسلوب وتضعف اللغة ، تفقد فيه لغة جبرا جمالها وزخرفها وحمولتهاالشعرية . يطرح هذا الفصل في علاقته الروائية اسئلة نسألها أو سؤالا نسأله : لماذا تثقب ذاكرة الفنان في اللحظة التي تثقب فيها ذاكرة الطبقة التي يكتب عنها ؟ . ويصبح هذا السؤال مدخلا لقراءة علاقة الكاتب بنصه وعلاقته بالطبقة التي يكتب عنها .

يوجد السرد الروائي في منطقه الداخلي بين الراوي وموضوعه ، تنعدم بينهما المسافة ،